المقدمــة

الحمد لله الذي لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ولا مغير لسنته: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣]، **والصلاة والسلام على المبعوث بالحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً.**

أما بعد: فمثلما تفرد الله ـ تعالىٰ ـ بالخلق، فقد تفرد بالاختيار، فلا اختيار بعد اختياره إذا اختار، قال ـ سبحانه ـ: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** [**القصص**: ٦٨].

وقد اختار الله ـ تعالىٰ ـ ما أحب، وأخبرنا عما أحب حتىٰ نتعبده بتعظيم محابِّه وما اختاره من خلقه؛ فقد اختار ـ سبحانه ـ الملائكة من الكائنات، واختار من الملائكة جبريل عليه السلام، واختار الرسل من البشر، واختار من الرسل محمداً عليه الصلاة والسلام، واختار من الأزمنة رمضان، واختار من رمضان ليلة القدر. واختار من الأمكنة مكة والمدينة وبيت المقدس، واختار من تلك الأماكن مساجدها الثلاثة، فضاعف الصلواتِ فيها، ورغَّب عباده في شد الرحال إليها، وأوجب علىٰ الأخيار منهم أن يطهروها ويعمروها.

أما طهارتها؛ فبأن تنزه عن تنجيس المشركين والكافرين لها إذا حلوا فيها أو غلبوا عليها فأقاموا في أرجائها عبادة لغير الله.

وأما تعميرها؛ فبأن تقام فيها عبادة الله خالصة علىٰ التوحيد والدين الصحيح؛ ذلك أن تلك المساجد إنما جعلت لأهل التوحيد خاصة في كل زمان، قال ـ تعالىٰ ـ: **﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ**

وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٨] والمقصود بالرفع هنا الرفع المادي بالبناء، والمعنوي بالتعظيم والتعبد، وهذا عام في كل المساجد، إلا أن المساجد المذكورة لها أولوية في ذلك، ولهذا قال عكرمة في تفسير هذه الآية: «هي المساجد الأربعة: الكعبة، ومسجد قباء، ومسجد المدينة، ومسجد بيت المقدس»(١).

فمنذ أن تأسس المسجد الأول من تلك المساجد وهو المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ أمره الله بتطهير بيته ليخلُص للموحدين العابدين. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، وقال ـ تعالى ـ عنه وعن ولده إسماعيل ـ عليهما السلام ـ: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وهذا العهد هو أيضاً أمر لذريتهما من أهل التوحيد، أن يُبقوا على المسجد الحرام مطهراً من الأوثان، خالصاً لعبادة الرحمن؛ ولهذا امتثل الرسول ﷺ لهذا الأمر، وطهر البيت الحرام من الأوثان والأصنام بعد أن فتح الله على يديه مكة المكرمة في العام الثامن للهجرة النبوية الشريفة.

أما المسجد الأقصى الذي بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعدما بنى المسجد الحرام بأربعين سنة؛ فقد بارك الله ـ تعالى ـ في الأرض حوله، وجعل من بركتها أنه بعث فيها ثلة عظيمة من الأنبياء الذين أقاموا فيها الدين الصحيح ودعوا إليه.

(١) انظر: تفسير الطبري، (١٨/ ١١٠)، وتفسير فتح القدير، للشوكاني، (٤/ ٣٤).

ولم يشهد مسجد من مساجد الأرض كلها، بل لم يشهد أي معبد من معابد البشر جميعاً ما شهده المسجد الأقصى من تنافس بين الأمم على حيازته والسيطرة على أرضه، فكان من هؤلاء المتنافسين عباد موحدون؛ أرادوا أن يقيموا فيه عبادة الله على ما أمر الله، وكان هناك من يريد إقامة دعائم الشرك ومظاهر الوثنية فيه أو يزيل العبادة منه، وفي أمثال هؤلاء نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُوْلَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [**البقرة**: ١١٤].

وينطبق هذا الوعيد على (بختنصر) الذي خرّب بيت المقدس قبل الإسلام، وعلى مشركي العرب الذين لوثوا الكعبة بالأصنام قبل الرسالة[1] هذا في الزمن القديم، أما في الزمن الوسيط فينطبق هذا الوعيد على النصارى الصليبيين الذين اجتاحوا بيت المقدس قبل عشرة قرون.

أما في عصرنا؛ فلم نر زماناً مثله احتل فيه المسجد الأقصى تلك المساحة من الاهتمام بين أمم الأرض؛ حيث أصبحت دياره بؤرة أحداث كبرى جرت ولا تزال تجري في هذا العصر ضمن ما عُرف بـ(أزمة الشرق الأوسط)، تلك الأزمة المستمرة منذ أكثر من نصف قرن، والتي تُظهر الأيام أن المسجد الأقصى والسيطرة عليه هي الغاية النهائية في الجانب الديني منها، وهذا ما كشفت عنه مفاوضات (كامب ديفيد) الثانية والأحداث التي تلتها.

وفي الحقيقة أن هذا الأمر كان واضحاً منذ بداية القضية لمن فهمها على وجهها وحقيقتها الدينية؛ حيث وضح من تسلسل الأحداث منذ ما يزيد على قرن من

(١) انظر: تفسير الطبري، (١/ ٣٧٤).

الزمان أن اليهود ما قدموا إلى المنطقة إلا للسيطرة على الأرض المقدسة التي أسموها (أرض الميعاد)، وما قدموا إلى تلك الأرض إلا للسيطرة على القدس التي اعتبروها (عاصمة المسيح المنتظر) وما أرادوا السيطرة على القدس إلا من أجل استعادة ما أسموه (جبل الهيكل) وهو الأرض التي يقوم عليها الآن المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، وبعد السيطرة عليهما يريدون أن يهدموهما ويعيدوا مكانهما بناء هيكلهم الذي هُدم منذ ألفي عام، ويشارك اليهود في هذا المسعى طوائف كبيرة من النصارى الذين يشتركون مع اليهود في قسم كبير من عقائدهم، على ما يأتي بيانه في تضاعيف هذا الكتاب الذي أحاول فيه لمَّ خيوط تلك المؤامرة الكبرى مع بيان خلفياتها الدينية والتاريخية

هذا، وكنت قد انتهيت منذ نحو خمسة عشر عاماً ـ تقريباً ـ من تأليف كتاب (قبل أن يُهدم الأقصى)، ولكنه لم يصدر إلا بعد خمس سنوات من الانتهاء من أكثر فصوله، وذلك عام ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م. وقد حاولتُ فيه إبراز تلك الحقيقة، حقيقة الموقع الخطر للمسجد الأقصى في خارطة ما يسمى بـ (أزمة الشرق الأوسط)، وقد تتابع صدور طبعات مختصرة من هذا الكتاب في السنوات التي تلت ذلك.

وظللتُ متابعاً للتطورات التي تتنقل فيها الأزمة بوجه عام، وقضية المسجد الأقصى بوجه خاص، وقد لاحظت تفاعلاً خطيراً وكبيراً في السنوات الأخيرة لمسائل تتعلق بالمسجد الأقصى ومساعي اليهود إلى هدمه أو إزالته بأي وجه من الوجوه، وازدادت وتيرة هذه المساعي مع اقتراب العام ٢٠٠٠م؛ بحيث ظهر أن لهذا العام أهمية خاصة لدى اليهود والنصارى لاعتبارات دينية عندهم تتعلق بدنو آخر الزمان وقرب مجيء المسيح المنتظر في اعتقاد كل من الأمتين الضالتين، فهو

ليس سنة ككل السنين عندهم، بل إنه رمز فاصل لمرحلة زمنية خاصة، ولهذا شهد ذلك العام وما قبله ويترجح أن يشهد ما بعده تفاعلات كبرىٰ لها خلفياتها الدينية، وإن بدا للناس أنها تطورات سياسية.

وقد حَدَتْ بي هذه التفاعلات إلىٰ إصدار كتاب (حمَّىٰ سنة ٢٠٠٠)[١] الذي صدر في أواخر العام ١٤٢٠هـ وقبيل العام ٢٠٠٠م، وقد رصدت فيه عدة ظواهر دينية تقترن ببدء الألفية الثالثة للميلاد، ولكني وقعت في خطأ الافتراض بأن ما سبق أن ذكرته في كتاب (قبل أن يهدم الأقصىٰ) وذكره الكثيرون غيري من الخلفيات الدينية والتاريخية للصراع هو أمر مفهوم لدىٰ الأكثرين من القراء؛ بحيث يبنون عليه ما يُذكر من تفاعلات (العقيدة الألفية)، ولكن تبين خطأ هذا الافتراض من كثرة ما كان يرد من تساؤلات كان المظنون أنها أصبحت من البدهيات؛ لهذا رأيت أهمية الإعادة والإبراز والتكرار لهذه الخلفيات والتفاصيل التي تسهم كثيراً في فهم تداعيات الأحداث وما وراءها.

إن العام ٢٠٠٠م لم يكد ينتصف حتىٰ تفاعلت الحمَّىٰ الألفية اليهودية النصرانية علىٰ نحو خطير أصبح يمثل تحولاً في كيفية إدارة الصراع؛ حيث برز ما كان مخفياً ـ إلىٰ حدٍ ما ـ من الدوافع الدينية العقدية لدىٰ الساسة اليهود والنصارىٰ، وإذ قد ظهر هذا فإنني أعُد ذلك فرصة تاريخية للمسلمين لتصحيح مسار الصراع وتحويل مجراه إلىٰ وجهته الصحيحة؛ حيث أدير هذا الصراع دينياً منذ بدأ ولكن من طرف واحد هو طرف الأعداء، أما المتصدرون للصراع من بني جلدتنا؛ فقد أرادوها علمانية حتىٰ النخاع واستسلامية إلىٰ ما تحت القاع؛ ولهذا نفَروا ونفَّروا من كل صوت يدعوهم إلىٰ رفع راية الإسلام في المعركة في مقابل

(١) صدر عن المنتدىٰ الإسلامي بلندن، وطبع ثلاث طبعات في السعودية، وطبعتان في مصر، وطبعة في اليمن، وكانت أغلب فصوله قد نشرت علىٰ حلقات في مجلة البيان.

رفع اليهود والنصارىٰ لرايات ما أسموه (الكتاب المقدس)!

إن هذا الخذلان والتخذيل العلماني الجهول الذي أصر علىٰ نزع الطابع الديني عن المعركة طيلة خمسة عقود؛ هو المسؤول الأول والأخير عن الهزائم والنكسات والانكسارات التي مرت علىٰ الأمة خلال سنيِّ الصراع حرباً وسلماً، مع أن تلك القضية التي يدور حولها الصراع ـ قضية بيت المقدس ـ كان يمكن لها أن تكون عامل توحيد فعلي لشعوب العالم الإسلامي باعتبارها قضية جوهرية مركزية ذات ثقل عظيم وخطر جسيم يدفع كل من يحمل بين جوانحه قلباً موحِداً أن يتفاعل معها؛ ولهذا فإن لها موقعاً متميزاً مقارنة ببقية قضايا المسلمين المعاصرة، علىٰ أهميتها وخطورتها، ذلك أن تلك القضية تتميز بخصوصيات تنفرد بها عن سائر القضايا الأخرىٰ التي لقي بعضها من الاهتمام والتعاطف والحشد أكثر بكثير مما لقيت قضية بيت المقدس.

إن قضية فلسطين، أو بيت المقدس، أو المسجد الأقصىٰ تتميز بخصوصيات تجعلها بحق القضية الأحق بأن تجتمع حولها الجهود، وليس القلوب فقط، وتُحشد لها الإمكانات والطاقات، وليست العواطف والانفعالات فقط، وهذه الخصوصيات هي:

أولاً: خصوصية دينية:

حيث إن قضية بيت المقدس ـ في جانب كبير منها ـ قضية دين وعقيدة، لتعلقها بحفظ جناب التوحيد فوق أرض مباركة، ومكان قدسه الله واختاره، وجعله مهبط أكثر رسالاته، ومهجر وموطن أكثر أنبيائه، ومهوىٰ أفئدة أوليائه في القسم الأكبر من عمر الدنيا الماضي، وجعله محور أحداث الدنيا العظام في عمر الدنيا الباقي، وبالنظر إلىٰ قداسة ذلكم المكان؛ فإن مسؤولية الموحدين كبيرة تجاه

تخليصه من سيطرة كفار أهل الكتاب الذين لا يكتفون بتدنيسه؛ بل يهدفون إلىٰ هدمه لإقامة معبد كفري بديل تقام فيه علانية شعائر وشرائع اليهودية المحرفة المنسوخة، فالسماح بإحلال كفر اليهود أو شرك النصارىٰ محل التوحيد في المسجد المبارك هو التفريط بعينه، والجناية بذاتها علىٰ حِمَىٰ التوحيد في المسجد الذي بناه بيديه إمام الموحدين وأبو الأنبياء والمرسلين إبراهيم عليه السلام.

ويدخل في الخصوصية الدينية لهذه القضية أنها ترتبط بها تكاليف شرعية وواجبات دينية تلزم أعناق المسلمين فرادىٰ وجماعات ومجتمعات؛ لنصرة من استنصروهم في الدين، فأوجبوا عليهم تلك النصرة عينياً وكفائياً، جهاداً بالنفس والمال. هذا مع ما يلزم المسلمين جميعاً من النفير خفافاً وثقالاً إذا دهم العدو أي أرضٍ للمسلمين، فما الحال إذا كانت تلك الأرض المدهومة ـ منذ نصف قرن ـ هي الأرض المقدسة؟! ومِنْ مَنْ؟... من اليهود أعداء الله وملائكته ورسله وسائر المؤمنين.

ثانياً: خصوصية مكانية:

ذلك لما للمكان محل التنازع من حساسية بالغة، كانت عبر التاريخ مثار صراعات وحروب، حتىٰ إن التاريخ لم يعرف مدينة تواردت عليها الجيوش من مختلف شعوب الأرض، مثلما تواردت علىٰ بيت المقدس، وفي عصرنا هذا يتكرر التنازع علىٰ الموضع نفسه، فالمكان واحد والأرض المقدسة واحدة، والمسجد المبارك واحد، ولكنَّ المتنازعين كُثر، فلليهودية العالمية أطماعها المستقلة، وللنصارىٰ البروتستانت تطلعهم المنفرد، وللنصارىٰ الكاثوليك نظرتهم الخاصة، أما العرب والمسلمون فلا يعترفون لهؤلاء ولا هؤلاء بحق السيادة علىٰ

الأرض المقدسة أو المسجد المبارك، ومن ثم ستظل خصوصية المكان سبباً في أبدية الصراع وديمومة العداء؛ لأن تلك الخصوصية المكانية استُمدت ـ عند أصحاب الديانات الثلاثة ـ من مسلَّمات عقدية؛ فأصبح المكان ميداناً ـ كما كان ـ لجريان سُنَّة التدافع بين الناس.

ثالثاً: خصوصية زمانية:

فقضية بيت المقدس تتفاعل منذ قرن كامل أو يزيد، وهي مرشحة لتفاعلٍ أشد سوف يمتد إلىٰ آخر الزمان علىٰ ما يظهر من استقراء النصوص الدينية لدىٰ أصحاب الديانات الثلاثة، فالأرض المقدسة في تلك النصوص ستكون محور أحداث آخر الزمان، وميدان معاركه وساحة صراعاته، فكل أصحاب الملل الكبرىٰ، وبعض أصحاب النحل الصغرىٰ، يؤمنون بقدوم قادم في آخر الزمان، يختلفون في شخصه، ولكنهم يتفقون علىٰ مكان ظهوره، وهو بيت المقدس، ويتفقون جميعاً علىٰ أن زمان خروجه هو في بداية ظهور أشراط الساعة الكبرىٰ وبعد انتهاء أشراطها الصغرىٰ، علىٰ اختلاف بينهم في تعيين هذه الشروط.

ومن العجيب أن هناك قناعات متزايدة لدىٰ المتدينين من اليهود والنصارىٰ تشعرهم بأننا نعيش بالفعل بدايات هذا الزمان الأخير، وهذا ما يعطي لتفاعلات القضية في مراحلها القادمة طبيعة مميزة ورائحة خاصة، تغلب عليها لدىٰ أهل الكتاب ظواهر الترقب المشوب بالوجل، وصرعات التخوف المستسلم لدعايات الخرافة والدجل، وهذا وذاك من شأنه أن يسهم في حرصهم علىٰ تسريع معدل سير الزمان إلىٰ آخره استشرافاً لأزمنة الخلاص.

أما من الوجهة الإسلامية، فمن دون تحديد لزمن بعينه؛ فإن المسلمين يؤمنون بأن الأرض المقدسة ستكون في موضع صدارة أحداث الزمن الأخير،

فمجمل النصوص الشرعية تدل على ذلك، وتنبئ بأن بيت المقدس سيشهد نزول آخر خلافة على منهاج النبوة، وسيشهد تجمع الطائفة المنصورة في الأمة، المقاتلة على الحق، وسيشهد عودة عيسى عليه السلام، وقيام مملكته الحاكمة بالإسلام، وسيشهد القتال الأخير مع اليهود، والملاحم الكبرى مع النصارى، وسيشهد بيت المقدس أيضاً التجمع الأخير للبشر في أرض المحشر حيث يتفرق الناس بعده إلى منازل وأحداث القيامة الكبرى.

وإذا كان تصارع أهل الأديان الثلاثة حول الأرض المقدسة قد بدأ بالفعل في زماننا هذا على صورة لم تحدث في التاريخ من قبل، وهي الصورة الدينية الصرفة ـ فلا شك أن هذا يعطي خصوصية زمانية لتلك القضية في مرحلتها المعاصرة، تنفرد بها عن كل قضايا الصراع في التاريخ.

رابعاً: خصوصية عسكرية:

وهي أن تلك القضية تلفها ظواهر عسكرية ذات طبيعة نادرة بل شاذة؛ إذ كيف تُمكَّن دولة اليهود ذات الملايين الأربعة من تحدي أمة من المسلمين تبلغ ملياراً وربع المليار؛ بحيث تعجز دول وجيوش هذه الأمة المليارية عن إيقاف طائفة الأقلية اليهودية عند حدها؟.. وكيف تمكَّن تلك الدولة العقور من التفوق العسكري الصارخ على جميع الدول العربية المحيطة، وكيف يسمح لتلك الدولة دون سائر دول المنطقة أن تتملك ترسانات أسلحة الدمار الشامل من نووية وكيماوية وبيولوجية، تحت سمع وبصر (الشرعية الدولية)، في حين تُجمِع دول العالم على إبقاء القوة التي تمثل خط الدفاع الأول ضد اليهود ـ وهم الشعب الفلسطيني ـ قوة عزلاء شلاء لا تملك في الدفاع عن نفسها إلا الحجارة؟!

والتساؤل هنا لا ينحصر في أداة الاستفهام (كيف) فيقال: كيف؟... كيف

يحدث هذا؟ ولكن السؤال الأهم هو (لماذا؟) . . . لماذا يحدث كل هذا؟ ولماذا (تفاجأ) الجيوش العربية في كل جولة مع اليهود بأنها لم تكن مستعدة لحرب كاملة شاملة مع العدو؟! . . . ولماذا يظل التنسيق العسكري العربي غائباً بعد نصف قرن من بدء الصراع مع (العدو المصيري)؟! و (لماذا) أصبح خيار (الاستسلام) المسمىٰ بالسلام، خياراً استراتيجياً شبه مجمع عليه؟! إنه بلا شك وضع شاذ نشاز يثير الغيظ أكثر مما يبعث علىٰ التساؤل.

خامساً: خصوصية سياسية:

حيث لم يعرف العالم المعاصر قضية أعقد من تلك القضية التي تشعبت لتلف بخيوطها كيانات كبرىٰ في العالم. فالحروب بشأن فلسطين والصراعات حولها شغلت العالم طيلة خمسة عقود، ولا تزال تشغله، وتستدرج أطرافاً دولية عديدة للتورط في مسالكها الوعرة وتضاريسها التي قد تقود من يبحث فيها عن سبل السلام إلىٰ التيه في ميادين الحرب؛ فقد تورطت بشكل مباشر في فترة من الفترات كل من إنجلترا وفرنسا، ودخلتا حروباً بسببها، أما الولايات المتحدة؛ فإن الرمال المتحركة من صحاري الأرض المقدسة تأخذ بأرجل الأمريكان للغوص فيها كلما ظنوا أنهم انتهوا منها. إن قضية فلسطين ـ ولُبها قضية المسجد الأقصىٰ ـ هي القضية التي أصبحت مشكلتها السياسية علماً علىٰ المشكلات؛ بل أم المشكلات في العصر الراهن، إنها (مشكلة الشرق الأوسط)! التي عرفنا متىٰ وكيف بدأت، ولكن لا أحد يعرف متىٰ وكيف ستنتهي في مستقبلها المنظور.

سادساً: خصوصية تاريخية:

فقضية بيت المقدس بالرغم من ضخامتها وخطورتها جاءت في ظرف وهنٍ تاريخي، ووقت تراجع استثنائي لم يشهده التاريخ الإسلامي منذ بدأ، وذلك

الظرف هو: غياب الكيان السياسي الإسلامي العالمي ممثلاً في دولة الخلافة الإسلامية التي كانت حامية تقليدية للشعوب الإسلامية عبر تاريخ الإسلام، وقد تزامن هذا الغياب ـ بشكل لافت ـ مع إطلالة المشروع اليهودي في الأرض المقدسة حيث سقطت دولة الخلافة ـ رسمياً ـ في العام ١٩٢٤م، وأعلنت دولة اليهود ـ رسمياً ـ في العام ١٩٤٨م؛ فلم يفرِّق بين ذاك السقوط وهذا القيام سوىٰ ربع قرن، مع أن الكيان السياسي لليهود لم تقم له قائمة قبل ذلك طيلة عصور الإسلام في ظل دول الخلافة المتتابعة، أي ما يزيد علىٰ ثلاثة عشر قرناً، وكان هذا الكيان مفقوداً أيضاً قبل الإسلام بنحو ستة قرون.

وإذا كانت قضية بيت المقدس، قد بدأت فصولها في ظل خصوصية تاريخية سلبية من جهة المسلمين؛ فإنها جاءت في ظل خصوصية تاريخية إيجابية بالنسبة لليهود؛ حيث أصبحت لهم بعد أكثر من ألفي عام دولة في الأرض المقدسة؛ لا بل أصبح لهم تأثير عالمي، واستكبار دولي، أمسىٰ يمثل فصلاً جديداً من (العلو الكبير) وربما الأخير، وهنا تكمن المفارقة التاريخية الكبرىٰ، وهي شغور الزمان من دولة خلافة إسلامية، مع حضور دولة دينية يهودية، في حقبة زمانية واحدة، مما أعطىٰ لقضية الأرض المقدسة في ظل ذلك الوضع القائم خصوصية تاريخية استثنائية انعكست أبعادها بلا شك علىٰ طريقة إدارة الصراع بين أطرافها.

سابعاً: خصوصية إنسانية:

فالقضية المعاصرة لبيت المقدس، تشهد مأساة إنسانية ذات أبعاد خطيرة، لم نسمع عن أبعاد مثلها أو قريبة منها؛ حيث لم يَرَ العالَمون شعباً كاملاً يعاني التهجير والنفي والاغتصاب للأملاك والأعراض، مع القتل والأسر وسائر صنوف الأذىٰ، ثم يظل قسم من هذا الشعب مع ذلك في وضع معيشة إجبارية

خارج وطنه، وقسم يعاني حياة ذليلة داخل وطنه؛ بحيث يفرض الواقع الدولي والعربي عليه أن تكون لقمة عيشه رهينة الإرادة اليهودية التي تغلق الحواجز والمدن وقتما تشاء في وجه عمال يضطرون يومياً إلىٰ ما هو أسوأ من أكل الميتة، ألا وهو العمل في بناء المستوطنات وتعمير القرىٰ والبلدان التي يستولي عليها اليهود، لقاء لقمة عيش ممزوجة بمرارة الاضطرار، وحرارة العوز والافتقار. ثم إن إرادة تحدي هذا الواقع المرير، تصطدم كل مرة بواقع أمرٍّ؛ حيث يفرض علىٰ هذا الشعب أن يحيا أعزل من كل سلاح يمكن أن يدافع به عن نفسه إلا سلاح الحجارة!!.. فأي عصر حجري هذا الذي نعيشه؛ بحيث يُحرم شعب كامل من الدفاع عن دمه وعرضه، فضلاً عن ماله وأرضه إلا من سلاح (الحجارة)؟! ولماذا لم تُمد يد العون لهذا الشعب المقاتل ليقاتل بسلاح، أي سلاح ضد عدو يملك كل السلاح؟!.. من المسؤول عن صنع هذه الحالة البائسة في خصوصيتها من الناحية الإنسانية؟... إن تلك الخصوصية الإنسانية لها بعد آخر لا يقل عن قداسة المكان وتميز الزمان؛ إنه كرامة الإنسان، تلك الكرامة التي جعلها الله للبشر كافة، وللمسلم خاصة، فجعل حرمة المسلم ـ كما قال عمر ـ أعظم عند الله من حرمة الكعبة!

إن تلك الخصوصيات التي تجمعت في تلك القضية الواحدة قضية القدس لجديرة حقاً بأن تجعلها همَّ المسلمين الأكبر وقضيتهم الأولىٰ دون انتقاص أو إرخاص لبقية قضايا المسلمين. وأعود فأقول: إن تلك القضية الجوهرية في واقعها، والمركزية في أهميتها، إنما يمثل المسجد الأقصىٰ منها الجوهر والمركز، فقضيته هي جوهر الجوهر ومركز المركز في مجمل قضايا المسلمين العملية المعاصرة.

لهذا فقد اخترت ـ بعد تردد كثير ـ أن أعبر عن الخطر الذي يمكن أن تتعرض له الأرض المقدسة ـ إذا اغتيل مسجدها المبارك ـ بـ (الكارثة)، فجعلت عنوان الكتاب ـ

في طبعته هذه ـ بعد إضافات وحذوفات : (قبل الكارثة . . . نذير ونفير) .

ولم أقصد بـ (الكارثة) حدثاً جائحاً يمكن أن يخيم على الأرض المقدسة وحدها ؛ بل قصدت التحذير من أن ذلك الحدث سيشمل بظلامه ـ إن وقع ـ المنطقة العربية بخاصة ، والبقاع الإسلامية بعامة ؛ فالأمة بأسرها على شفا كارثة حقيقية إذا ما وقع المحذور وهُدم المسجد الأقصى ـ لا قدر الله ـ ، ووصف (الكارثة) بالرغم من وقعه الثقيل يحكي بحق ما يمكن أن تؤول إليه الأمور لو نفذ اليهود ـ بمؤازرة من النصارى ـ ذلكم الحدث الجلل ، هذا الذي إن وقع ـ ونسأل الله ألاَّ يقع ـ لغيَّر خارطة الصراع كلها ، ولقلَب الأوضاع رأساً على عقب ، ولأوجد معادلات جديدة يمكن أن تزيد في صعوبة وتعقيد القضية على وجه بعيد عن صالح المسلمين في فلسطين وما حولها .

ففرق كبير ـ في تقديري ـ بين أمة تدافع عن مقدسات قائمة موجودة وأمة تحاول استرجاع مقدسات غائبة مفقودة ، فالأولى تستجمع قواها لردع عدوها وردِّه عن المساس بالمقدسات الموجودة الحاضرة ؛ بحيث تُفهِم أعداءها بأنها ستفرغ كامل بأسها فيمن يهدد هذه المقدسات ، وذلك من خلال جهاد سديد عنيد مبني على العقيدة القتالية الإسلامية التي تقوم على إرهاب العدو بإعداد المستطاع من القوة .

أما في الحالة الثانية ؛ فإن الحديث عن استعادة مقدسات قد فُقدت سيحتاج إلى محاولات يائسة بائسة ، طويلة ثقيلة لكي تستعيد الأمة كامل قوتها لاستعادة كامل أراضيها ، ثم إعادة بناء مقدساتها !

هل فكرنا في شكل الجهاد المطلوب من الأمة في أرض الشام ؛ لو غدت الشام بلا فلسطين . . أو غدت فلسطين بلا قدس ، أو غدت القدس

بلا أقصىٰ . . ؟! هل تأملنا في عسر مهمة تجييش الأمة مرة أخرىٰ حول قضية مركزية كقضية المسجد الأقصىٰ القائم الآن لو فقد هذا المسجد؟!

إن اليهود يحلمون بيوم كهذا، وللأسف الشديد فإن أحوال المسلمين تغريهم بهذا.

إنني أعتقد عن يقين أن مهمة صلاح الدين في تحرير مسرىٰ الرسول ﷺ لم تكن لتكون ممكنة لو لم يكن المسجد الأقصىٰ قائماً في زمانه.

نعم . . مهمة تحرير المسجد الأسير أهون كثيراً ـ علىٰ الرغم من تكاليفها الباهظة ـ من مهمة السعي إلىٰ إعادة بنائه بعد إلغائه أو إفنائه.

ولقد أثبتت أحداث الانتفاضة الأخيرة (انتفاضة الأقصىٰ) في العام ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠م أن جماهير المسلمين يمكن لها أن تنتفض، وتعاود الانتفاضة، كلما تعرض الأقصىٰ لمحاولة اعتداء أثيم، فتهب لإنقاذه وردع العدو عنه، أما إذا اغتيل الرمز الجميل . . . وشغر المكان وتغير الزمان، فأي صعوبة وعسرٍ ذلك الذي ستحتاجه محاولات إحياء الموات.

جانب آخر عَنَيْتُ الإيماء إليه بوصف (الكارثة)، وهو أن تلك المنطقة التي نعيشها لو شهدت حرباً أخرىٰ قريبة ـ وهذا هو المترجح الآن ـ فإن تلك الحرب في ظل واقعنا العربي المزري لن تستحق وصفاً آخر ـ والله أعلم ـ غير (الكارثة)! إلا إذا حدثت معجزة، وواقع العرب والمسلمين علىٰ أي حالٍ لا يشجع بتوقع المعجزات والكرامات.

لقد استحقت الحرب العربية الأولىٰ عام ١٩٤٨م وصف (النكبة)، ووصفت الحرب الثانية عام ١٩٥٦م بـ (العدوان الثلاثي)، ووصفت حرب يونيو ١٩٦٧م

بـ (النكسة). أما حرب أكتوبر ١٩٧٣م فأطلق عليها حرب (التحريك) لأنها حركت الأجواء إلىٰ سلام كامب ديفيد الذي أخرج مصر من ساحة الصراع، ثم جاءت حرب لبنان ١٩٨٢م ليحق عليها وصف (حرب الاختبار) لأنها اختبرت نوايا مصر في مدىٰ الالتزام بأحكام كامب ديفيد التي تفرض عليها أن تكون حرب أكتوبر هي آخر الحروب بين العرب وإسرائيل، وكانت اختباراً كذلك لدول (الصمود والتصدي) في مدىٰ صدقها في صمودها، أو تصديها لأعدائها، وهذا ما لم يحدث كما هو معروف. ثم جاءت حرب الخليج الثانية لتكون حرباً بـ (الوكالة) لتدمر أمريكا العراق نيابة عن (إسرائيل).

إنها حروب متتالية في عقود متوالية، تؤكد أن وقوع حرب في كل عقد أمر إسرائيلي لازم وضروري، وهذا ما أسماه (إسحاق شامير) رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق بـ (سياسة تقليع الأسنان)، بمعنىٰ: وضع العرب في كل عشر سنين مرة علىٰ مقعد خلع الأسنان، لقلع ما نضج نموه منها؛ لهذا فإن حرب العقد الحالي ـ الحرب السابعة ـ ستكون إذا وقعت (حرب الكارثة) لأن العرب قد استعدوا وأعدوا لها منذ أكثر من عشر سنوات، وأخذوا بكل الأسباب التي تقود إلىٰ الهزيمة أو إلىٰ (الكارثة)!!

وهذه الحرب ـ إن وقعت ـ فلن تكون بعيدة في أسبابها أو نتائجها عن المؤامرة المدبرة منذ عقود ضد المسجد الأقصىٰ.

إنني أقول هذا الكلام المثير للأشجان والأحزان؛ وأنا أعلم عن يقين، بأن حماية المسجد الأقصىٰ لا تزال ممكنة، وأن كف يد اليهود عنه لا تزال فرصتها قائمة، وأن المسلمين الصادقين في المشارق والمغارب قادرون علىٰ ذلك لو أخذوا

الأمر بجدية، ولكنَّ استمراءنا لتكرار شريط التفريط، واستمرارنا في السير على درب التخبط والتخليط هو وحده الكفيل بأن يصنع من جيلنا شريكاً بالأصالة في جريمة إخلاء الساحة المقدسة من المسجد المبارك.. وهذه هي الكارثة.. كل الكارثة!

فهل تفلح الأمة في تفادي هذا الخطب الجلل والمنعطف الخطر؛ فتحمي حماها، وتحفظ أقصاها... إن هذا لن يكون إلا بالفداء والجهاد والعمل: ﴿ **وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ [**محمد**: ٤ – ٧].

عبد العزيز بن مصطفى كامل

محاضر سابق بكلية التربية ـ جامعة الملك سعود

الرياض في ١٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ١٤ أكتوبر ٢٠٠٠م